

أن سيلفي بواليفو **Anne-Sylvie Boisliveau**

















مقاربة نص مؤسِّس؛ الصموبات، الحلول، الحدود؛ انطلاقًا من دراسة القرآن''

لمحة عن المؤلفة:

مؤلفة هذه المقالة هي آن سيلفي بواليفو (Anne-Sylvie Boisliveau)، وهي أستاذة محاضرة بجامعة ستراسبورغ في فرنسا، متخصصة في الإسلاميات واللغة العربية، وتاريخ الإسلام، لا سيما القرون الثلاثة الأولى، ولها عناية خاصة بالدراسات النصية للقرآن، والعلاقات الإسلامية المسيحية اليهودية، وعلاقة الكتاب المقدس بالقرآن، كما أنها عضو جمعية الدراسات القرآنية الدولية (Www.iqsaweb.org) (Anne-Sylvie Boisliveau).

ومن أهم مؤلفاتها:

- القرآن من خلال القرآن: مصطلحات وحجج الخطاب القرآني حول القرآن^(۲). وهو مستلُّ من أطروحتها للدكتوراه.

ومن مقالاتها:

- حديث القرآن عن القرآن في السور المكية الأولى (٣).

- إطلالة على مقاربات القرآن: المقاربات الأدبية نموذجًا^(٤).

Chercher. Objets, méthodes, limites et contraintes. Fanlo, Jean-Raymond (ed.), Aix-en-Provence : Publications de l'Université de Provence, 2012, p. 15-24.

https://presses-universitaires.univ-amu.fr/chercher

وكذا موجودة أيضًا على صفحة الكاتبة تحت الرابط التالي:

https://www.academia.edu.

ويجدر التنبيه إلى أمرين:

الأول: هذه المادة منشورة ضمن كتاب مع بعض مقالات أخرى وقد تحصّل المترجم على الإذن بترجمتها من دار النشر. الثاني: قامت الأستاذة آن سيلفي مؤلفة المقالة بمراجعة مادة الترجمة وإقرارها.

Le Coran par lui-même. Vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, Leiden, Brill, 2014. (Y) http://www.brill.com/le-coran-par-lui-meme

Le discours autoréférentiel dans les premières sourates mecquoises», in Azaiez M., Mervin S. (éds.), Le Coran nouvelles approches, (**7**) .actes du colloque Les Etudes coraniques aujourd'hui, IISMM/IREMAM, novembre 2009) Paris : CNRS-Editions, 2013, p. 291-305 http://www.cnrseditions.fr/Philosophie-et-histoire-des-idees/6820-le-coran-sous-la-direction-de-mehdi-azaiez-avec-la-collaboration-de-sabrina-mervin-.html

État des lieux des approches du Coran : les approches littéraires», in Zwilling A.-L (ed), Lire et interpréter. Le rapport des religions (§) à leurs textes fondateurs, Geneva, Labor et Fides, 2013, p. 151-161. https://www.laboretfides.com/fr_fr/index.php/lire-et-interpreter.

⁽١) عنوان المقالة بالفرنسية:

 $[\]label{eq:approcher} \mbox{$($Approcher un texte fondateur: difficult\'es, solutions et limites \`a partir de l'étude du Coran).}$

وهي منشورة في كتاب



مدخل:

يمثل القرآن الكريم أحد أبرز محاور الاشتغال العلمي للعديد من الأعمال العلمية في دوائر البحث الغربي، فلا يخفى على كلّ مطالع للنتاج الغربي لا سيما في مجال اشتغاله بالدراسات القرآنية مدى اتساع الحركة العلمية التي تدور رحاها في هذا الباب خاصة حول القرآن الكريم، ولا شك أن كثيرًا من الدرس الغربي للقرآن يختلف في هذا الباب بدرجة كبيرة جدًّا عن الدرس الإسلامي -كما هو بيّن - في العديد من النتائج التي يخلص إليها والأفكار التي يخرج بها؛ وذلك نظرًا لاختلاف طبيعة الركائز وتباين المنطلقات التي يصدر عنها كلّ جانب في مقاربته.

وبالرغم من تباين المنطلقات بين الدرس الغربي والإسلامي، إلا أنه كان ثمة اتفاق بوجه كبيرٍ على بعض الجوانب المركزية في بحث المسائل المتصلة بالقرآن الكريم وعلومه، كالرجوع للمصادر الإسلامية بشكل رئيس، والاتكاء عليها في بحث المسائل المتعلقة بهذا الأمر؛ باعتبارها تمثل المادة العلمية للاشتغال البحثي، بغض النظر عن آلية التعامل معها وكيفية معالجة معلوماتها، والاعتماد على الرواية الإسلامية في إثبات الوقائع المركزية المتصلة بالقرآن الكريم كتحديد وقت تدوينه وكتابته...إلخ.

وتأتي أهمية هذه المقالة العلمية في إبرازها -من جانب- مدى تأثير الاتجاه التنقيحي على الدرس الغربي للقرآن وعلومه والمنطلقات الرئيسة لهذا الدرس؛ بتشكيكه في الرواية التي تقدمها المصادر الإسلامية عن تاريخ القرآن وترتيبه ووقت تدوينه، ونزعه الثقة عن هذه المصادر التي طالما اعتمدت في الكتابات الاستشراقية السابقة كمصادر موثوقة حول تاريخ القرآن، ذلك أن المؤلفة حاولت ومن خلال عرض تجربتها العملية مع القرآن الكريم تلخيص أهم الإشكالات الكلية -العامة والمستجدة- التي يتعرض لها الدارس للقرآن الكريم ولأي نص أو غرض ذي طبيعة مركزية مؤسسة؛ وكذا الحلول الممكنة للتغلب على تلك الإشكالات، فتعرضت فيما تعرضت لهذه الجوانب التي تتصل بتاريخ القرآن وترتيبه ووقت تدوينه... إلى آخره مما أثاره الاتجاه التنقيحي، والذي لم يكن يمثل إشكالاً وصعوبة قبل ذلك كما هو معلوم؛ مما يبين لنا فرط التأثيرات التي أحدثها هذا الاتجاه على الدرس الاستشراقي ومدى الإشكالات التي أحدثها على ساحته والإكراهات المنهجية التي فرضها على كلّ باحث غربي يتناول القرآن.



كما أن أهمية هذه المقالة تظهر من جانب آخر في استعراضها لجهد بحثي في أحد أنماط المقاربة الغربية للنص القرآني والذي لاقى رواجًا مؤخرًا في الدراسات الغربية حول القرآن بوجه عام، وهو الدراسة النصيّة للقرآن؛ حيث اجتهدت الباحثة -المتخصصة في هذا الشأن - في استعراض وبيان بعض الخطوات التي سارت عليها لإنتاج مثل هذه الدراسة وكيف تعاملت مع صعوباتها.

وجدير بالنظر أنّ ما أثارته هذه المقالة من طبيعة الصعوبات والإشكالات التي تعترض البحث الغربي وتجابهه -سواء الإشكالات العامة أو المستجدة بسبب بروز بعض التوجهات وسُبل الحلّ التي يسلكها في المعالجة للتغلب على تلك العقبات تمثل بعدًا مهمًّا علينا أن نعنى به؛ لما يتيحه من فهم جانب كبير من الخلفية التي ينطلق منها الدرس الغربي في مقاربة القرآن الكريم ومعالجة القضايا المتصلة به، وكذلك طبيعة المنطلقات والأصول الكلية التي يصدر عنها في الاشتغال العلمي في هذا المجال، وهي أمور تأتي على رأس الأولويات الواجبة؛ لتكوين مثاقفة علمية راشدة مع هذا الدرس ومناقشته وتقويمه بشكل علمي جاد.



نص المقالة(۱)

أسعى في هذه المقالة إلى مشاطرة خبري البحثية فيما يتعلق بدراسة غَرَض (تحفة -قطعة أثرية) أو نص مؤسّس لثقافة أو لتيار من الأفكار؛ حيث إن مقاربة هذه النوعية من النصوص أو الأغراض تقتضي من جانب الباحث تبني منهجية دقيقة والانتباه إلى مجموعة من الصعوبات والإكراهات الخاصة ومحاولة إيجاد وسائل واقعية ومتوازية للسير في بحثه، وذلك نظرًا لكونها مؤسسة، ومن ثم فهي تكون شهيرة جدًّا وأُشبعت دَرْسًا على مرّ التاريخ، ولكونها -في الغالب- أيضًا محلًّا لأفكار متلقاة ومسبقة بشكل كبيرٍ.

وكانت دراستي للدكتوراه في قسم الدراسات العربية، وبالأخص في مجال علم الأديان والإسلاميات، وشكلت أطروحتي لنيل الدكتوراه دراسة تحليلية لنصّ القرآن من خلال تتبُّع خطاب القرآن عن القرآن: ماذا يقول القرآن عن نفسه؟ وعن الظاهرة القرآنية (٢)؟ وكيفية ذلك القول؟

سأتناول في الجزء الأول من هذه المقالة الصعوبات الخاصة التي تعترض دراسة غرض أو نصّ مؤسس، أما في الجزء الثاني فسوف أستعرض الشروط التي بدت لي ضرورية لمتابعة مثل هذه الدراسة، والتي حملتني على اختيار وسيلة عملية لتحليل النصّ تتمثل في ابتكار قاعدة بيانات. وذلك كله في سياق مشاطرة خبرتي البحثية لا النتائج العلمية لأعمالي والتي أشاطرها في مقالات ومنشورات أخرى.

⁽۱) أعدّت آن سيلفي بواليفو هذه المقالة العلمية عام ۲۰۰۹ عندما كانت طالبة دكتوراه في جامعة إكس أون بروفانس (Aix-en-Provence) قريب من مدينة مرسيليا في فرنسا، وقد سبق أن عرضتها كورقة بحثية في مؤتمر بمناسبة الاحتفال بمرور ۲۰۰ سنة على تأسيس جامعة إكس أون بروفانس، والتي أسست عام ۱۶۰۹ بعد الميلاد. (المترجم)

رًا) جُدير بالنظر أن مصطلح الظاهرة يكثر إطلاقه على القرآن في بعض الدراسات العربية والإسلامية، وهو أمرٌ لا يخلو من نظر. يراجع نقد إطلاق هذا المصطلح على القرآن في كتاب: «علوم القرآن في المنظور الحداثي؛ دراسة تحليلية نقدية لآراء الحداثيين في القرآن الكريم»، أحمد بوعود، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط: ١، ٢٠١٥، ص: ٩٠-٩٦. (المترجم)



١- صعوبات دراسة نص مؤسِّس:

١,١- النوع الأول من الصعوبات: ارتباط النصّ بتوقعات وتفسيرات عديدة:

ونتناول هذه الصعوبة من جانبين:

الجانب الأول: إنّ النصّ المؤسّس واسع الشهرة وكثير التداول خاصّة في إطار المجتمعات الدينية (لاسيما مجتمعات العالم الإسلامي)؛ حيث يشكّل قاعدتها العقائدية والأخلاقية والثقافية والقانونية أو جزءًا من ذلك على الأقل. ولقد أثمرت تيارات فكرية مختلفة عبر التاريخ تفسيرات وتأويلات غنية ومتنوعة لا يمكن غضّ الطرف عنها، وذلك بدءًا من تفاسير العقود الأولى للإسلام، حتى التفاسير السياسية في القرن العشرين، مرورًا بأعمال الحقبة الكلاسيكية حول الجانب اللغوي والنحوي للنصّ القرآني، إضافة إلى مختلف أنواع التفاسير التي تشتمل على تأويلات صوفية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف نتموضع إزاء تلك الأعمال شديدة التنوع والأهمية؟ وهل نستطيع أن نأتي بجديد في دراسة مثل هذا النصّ المؤسّس؟

الجانب الثاني: إنّ القرآن باعتباره نصًّا مؤسسًا كان موضوعًا لأفكار مسبقة وتوقّعات تترى على مختلف الأصعدة والجهات، تلك الأفكار المتداولة والتوقّعات التي قد توجد في إطار ثقافة إسلامية أو ثقافة غريبة عن النصّ، إلا أنها تتسم بشكل عام بعدم معرفة حقيقية للنصّ، بل وبوجود عدد من التوقعات العاطفية الشديدة أحيانًا، ولديَّ حكايتان صغيرتان بهذا الصدد، واللتان تظهران أنّ هناك أفكارًا مسبقة ومتداولة خاطئة سواء في العالم الإسلامي أو غير الإسلامي:

الحكاية الأولى: كنتُ أتحدثُ مع رجل مصري مسلم على متن طائرة قادمة من القاهرة، وقد شرح لي إلى أيّ مدى - تبعًا لوجهة نظره - تسلطت المعتقدات والأفكار النابعة من الخرافات القديمة على الإسلام فأثقلت كاهله وأصابته بالغموض والظّلمة، وضرب لي مثالًا على قوله بوجود الجنّ، تلك الكائنات الأرضية التي لا تُرى، ومنها الطيب والشرير، موضعًا بأن من المشين أنّ غالبية المسلمين يؤمنون بها رغم عدم ذكرها في القرآن. بينما تحدث النصّ القرآني بشكل واضح عن وجود هذه الكائنات.



الحكاية الثانية: في أثناء ذهابي إلى لندن لحضور مؤتمر حول القرآن، إذا برجل إنجليزي يعمل في وظيفة عالية في إحدى الوزارات وقد أدهشه انعقاد مؤتمر من هذا النوع يسألني: «ماذا يمكن أن يجد الباحثون في القرآن، وهو ليس سوى حكايات خيالية؟!». كان ذلك جهلًا بما يحتويه القرآن من خطابات عديدة متنوعة وشيقة يمكن استكشافها بعيدًا عن الاعتقادات الدينية التى قد نتبناها.

على الباحث مجابهة كلّ «الأفكار المتداولة والمسبقة» عند تناوله لموضوع البحث، سواء تلك التي يكتشف وجودها عند العديد من الباحثين قبله أو تكون حاضرة لديه عن موضوعه قبل أن يبدأ في دراسته. إنّ الدور الأكبر للباحث هو التحرّر من الأفكار السائدة والمسبقة، وإعلاء شأن المعارف الراسخة. لكن، بأي الوسائل سيتمكن من فعل ذلك؟

٢,١- النوع الثاني من الصعوبات: تاريخ النصّ:

إنّ تاريخ النصّ القرآني معقّد بشكل كبير، فالرؤية التقليدية والمؤمنة للتاريخ لا تتفق دائمًا مع رؤية المؤرخين. إنّ الرؤية التقليدية لتاريخ القرآن تتحدث عن مجموعة مراحل؛ ففي البداية، تلقى النبيّ من وقت لآخر خلال اثنين وعشرين عامًا أجزاء وقطعًا من القرآن ليقرأها بوحي من الله عبر جبريل، وقد قام أتباع محمد بتلاوتها بدورهم وحفظها عن ظهر قلب وأحيانًا كتابتها. وبعد وفاة النبي محمد في ٢٣٢ أمر زعيم المجتمع الناشئ الخليفة أبو بكر بتجميع قِطَع النصّ وكتابتها على صُحف. وفيما بعد - في عام ٢٥٣ تقريبًا - جمع الخليفة عثمان تلك الأجزاء في مؤلف واحد بغية أن يكون نسخة معتمدة للقرآن، وأمر بحرق بقية النسخ، غير أنّ بعضها استمر تداوله. وبعد عدة سنوات جرى إقرارُ عدد من القراءات المختلفة للقرآن - والتي تختلف قليلًا عن النصّ الرسميّ - باعتبارها قراءات قرآنية ثابتة، وظلّت كذلك حتي يومنا هذا (١٠). غير أن المؤرخين المعاصرين لا يتّفقون دائمًا مع هذه الرؤية لتاريخ القرآن، ويرى كثيرٌ منهم أن عملية المؤرخين المعاصرين لا يتّفقون دائمًا مع هذه الرؤية لتاريخ القرآن، ويرى كثيرٌ منهم أن عملية

⁽۱) لا بد هاهنا من تحرير موضعين رئيسين؛ أولهما: طبيعة الاختلاف بين المصحف العثماني وتلك المصاحف التي تم حرقها؛ فالقرآن لما جُمع أول مرة في زمن أبي بكر الصديق لم يتم إثبات شيء منه وإدراجه في المصحف إلا: ما شهد على حفظه وكتابته بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاهدان، وما ثبتت قرآنيته بطريق التواتر، وما استقر في العرضة الأخيرة ولم تُسخ تلاوته بإجماع الصحابة، غير أن الصديق -رضي الله عنه- لم يلزم أحدًا بهذا المصحف، وهو ما أبقى بذلك قرآنًا مما لم يثبت في العرضة الأخيرة محلًا للتداول، خاصّة وأن بعض الصحابة لم يشهد هذه العرضة الأخيرة؛ ومن ثم قام الخليفة الثالث عثمان -بعد مشورة الصحابة- بنسخ هذا المصحف وإرساله للأمصار، وأمر بتحريق ما عداه حسمًا للنزاع؛ ومن هنا يمكننا القول: إن القول بوجود اختلافات جوهرية بين المصاحف المحرّقة ومصحف عثمان، وأنها بمثابة تعددية من نسخ القرآن كالتي كانت للإنجيل مثلًا= أمر غير وارد على الإطلاق، فغايته أن يكون بها بعض آيات مما تم نسخه ولم يثبت في المصحف الأول الذي جمع في زمن الصديق، أو يكون مرده لاختلاف الرسم والترتيب...إلى آخره مما استقر بعد المصحف العثماني، والذي لا يمثل خلافًا في المضامين ولا يمكننا من القول بتعددية نسخ القرآن.



إنجاز نسخة نهائية ثابتة ورسميّة من القرآن (le processus de canonization du Coran) تمت في حكم الخليفة الأموي عبد الملك (٦٨٥-٥٠٧)، أو بعد ذلك بقليل. ويذهب القول ببعضهم إلى أنّ القرآن جُمِع متأخرًا في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع، وأنه توليف لنقول متنوعة من خارج منطقة الحجاز، إلا أنه على الرغم من ذلك، يُرجع غالبية المؤرخين مصدر القرآن -بشكل عام- إلى محمد ومحيطه.

كما أنه ثمة مشكلة أخرى تتعلق بالتاريخ الداخلي للنصّ، فالنصّ المعتمد للقرآن يتألف من مقاطع أسلوبية ومواضيع شديدة التنوّع، وهو ما يعلّله بعض المؤرخين بتأثير الثقافات المختلفة على النصّ، غير أن غالبية المؤرخين وكذلك التراث الاسلامي يرونه ثمرة الطريقة التي جُمع بها

⁼ ثانيهما: طريقة كتابة المصحف الإمام، حيث أمر الخليفة الثالث الكتبة عند وقوع أي خلاف بينهم بأن يتم إثبات حرف قريش لنزول القرآن به، وحين كُتِب القرآن بهذا الرسم ووفقًا لطبيعة الخط العربي وقتها، وهو غير منقوط ولا موضوعة عليه العلامات، فإنه يسمح بتلك القراءات المتعددة التي قرأها الصحابة وأقرّها النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، بحيث يكون المصحف العثماني شاملًا بذلك لكلّ ما أقر النبي -صلى الله عليه وسلم- من قراءات.

من خلال تحرير هذين الموضعين يبدو تمامًا كيف أن كلام الأستاذة آن سيلفي -والذي يشير لوجود اختلافات بين مصحف عثمان وغيره - غير صحيح ويفتقر إلى فهم دقيق في جانب منه لطبيعة اختلافات مصاحف الصحابة وأنها لم تكن بمثابة نسخ مختلفة في مضامينها أصلًا كما هو الحال في الإنجيل مثلًا، وإلا فأين شواهد هذه المصاحف التي استمر حضورها؟ وأين ما يفيد بذلك الاختلاف؟ خاصة وأن نسخ المخطوطات التي تظهر من هنا وهناك يُثبت دومًا مطابقتها للمصحف الإمام، وكذلك يفتقر في جانب آخر منه إلى فهم طريقة كتابة المصحف الإمام ودلالة الرسم العثماني وقدرته على احتمال تعدد القراءات الأصيلة التي أقرأها النبيُّ -صلى الله عليه وسلم - صحابته، لا سيما وأن موافقة القراءة لخط المصحف العثماني كانت شرطًا لقبول القراءة أصلًا كما هو معلوم. (المترجم)

⁽٢) ترى الكاتبة أنّ مصطلح (canonisation) يعني -كما بينتْ في إحدى مقالتها المعنونة بهذا المصطلح ذاته (٢) ترى الكاتبة أنّ مصطلح النصّ ومنحه سلطة رسمية، وهو ما حاولتُ مقاربته في الترجمة تمشّيًا مع رؤيتها -بعد مناقشة مطوّلة معها- وإن كنت لا أرى التعريب بهذه الصورة مناسبًا.

فمصطلح (canonisation) يطلق ليراد به -بشكل عام كما ذكرت الكاتبة- وصف عملية تثبيت النصوص والطريقة التي تشكلت بها في صورتها النهائية والرسمية وكيف تولدت سلطتها الرمزية؛ ومن ثم أرى أن تعريب هذا المصطلح وترجمته يقتضي ساعة ربطه بالكتب والنصوص الدينية ضرورة الإشارة إلى مسألة القداسة، لا مجرد ذكر التدوين والتثبيت للنصوص وإنتاج نسخها الرسمية... إلخ مما هو شائع في كثير من الترجمات العربية لهذا المصطلح كما لا يخفي على مطالع؛ فوفقا للقاموس الفرنسي الأبرز ROBERT فإن هذا المصطلح يعني : «mettre au nombre des saints»، أي: (لـدى وصفنا للشيء بهذا الفعل فإننا نضيفه إلى «القداسة»)، كما أن هناك بعض القواميس الأخرى ترجمته بالقداسة كـ «المنهل» مثلًا؛ ومن ثـم فإن بيان مسألة الارتباط بالقداسة يبدو مهمًّا جدًّا، وهـو الموافق للسياق الغربي لفهم المصطلح؛ فالنصوص المقدَّسة في الواقع الغربي كُتبت بعـد فـترات رَحْبـة مـن زمـن الأنبيـاء كمـا هـو معلوم، ثم اختارت الكُنيسة بعض النسخ المكتوبة وفرضت قانونيتها (قداستها) خلافًا لبقية النسخ التي اعتبرتها غير صحيحة وغير ممثلة للدين الصحيح (منزوعة القداسة)، ومن هنا فإن لفظ canonisation يشير في حقيقة الأمر في السياق الغربي إلى هـذه العملية التي جرت في التاريخ الكنّسي ويفهم لدى ذكره في هذا السياق بغض النظر عن كون الواقع الثقافي الغربي لائكيًّا الآن ومنفصلًا عن الكنيسة، إلا أن هذا هو الحاصل عمليًّا؛ كون هذا التصور المربوط بإنتاج نسخة مقدسة بهذه الصورة هو السياق التاريخي المتصور لديهم عن نصوصهم المقدسة؛ فالإنسان هو في النهاية ابن بيئته وتتشكّل لديه التصورات تبعًا للسياق الثقافي الذي ينشأ فيه، كما أنَّ السلطة التي تُمنح للنصّ الديني -والتي ذكرتها آن سيلفي في دلالة المصطلح- لا يمكننا فهمها بعيدة عن دائرة التقديس؛ لأن التقديس هو توصيف هذه السلطة بشكل أو بآخرٍ، لأن السلطة لا بدلها من مصدر يمنحها وهو هنا المقدس؛ ومن ثم فإن الإشارة في ترجمة canonisation إلى القداسة واجبَّة، خلافًا للترجمات الشائعة من مثل تدوين النصّ أو تثبيته، والتي لا تفي أبدًا بالمعنى والمدلول من هذا اللفظ في سياقه الغربي كما مرّ، وإن كان تحرير دلالة هذا المصطلح يبقى بحاجة لمزيد فحص ودرس. وسوف أقوم بعرض إشكالات هذا المصطلح وسبل تعريبه في مقالة مفصّلة -بإذن الله-، قد تخرج للنور قريبًا، علّها تسهم في تسليط الضوء على البعد الدلالي لهذا المصطلح وتكون خطوة في سبيل تحرير مفهومه وتعريبه على نحو دقيق. (المترجم)

النصّ. فعند جمْع النصوص في مؤلف واحدٍ لم يجر ترتيبها تبعًا للترتيب الزمني لظهورها، وإنما وفقًا لترتيب مغاير تمامًا، له منطق مختلف، يهدف ربما إلى المساعدة في حفظها؛ حيث تم وضع الأجزاء الأكثر طولًا في البداية، وهو ما لا يساعد القارئ أو السامع على الوقوف على الكيفية التي تطوّر بها النّص.

ونظرًا لما سبق من أسباب؛ فإن الباحث الذي يدرس القرآن يجد نفسه أمام تساؤلات في تاريخ النص القرآني. هل يستعين فقط بالنسخة النهائية الرسمية المنتشرة للنص، أم عليه إدخال القراءات المختلفة للنصّ والاختلافات التي نجدها في المخطوطات؟ وأين وكيف يمكن العثور على سائر هذه الاختلافات الموجودة في القراءات والمخطوطات؟(١)

فحتي يومنا هذا لا يوجد عمل تحرير نقدي لنصّ القرآن يحتوي على كلّ الاختلافات والبدائل الموجودة. وهناك مشروع كبير أطلقه باحثون ألمان تحت اسم (موسوعة نُسخ القرآن corpus coranicum)(۲) ، يمكّن من الوصول إلى كلّ آية وقراءاتها وبديلاتها المختلفة (۳) ، وإن كان في بعض الأحيان على المستوى الصوتي فقط. وفي ذات الصدد، قد يكون هناك مشروع لنشر المخطوطات القرآنية القديمة في نسخ مطابقة، إلا أنه حتى الآن لم تتوفر هذه الأداة.

كما أنه من الصعب الإلمام بفكرة محددة عن التطورات الداخلية للنصّ الذي جَمع -طبقًا للتراث الإسلامي- النصوص التي ظهرت خلال اثنتين وعشرين سنة. وكثيرًا ما صرّح علماء التراث الإسلامي والباحثون الغربيون بإمكانية الترتيب الزمني للسور، إلا أن ذلك يبقي مجرد فرضيات.

ولكي لا يقع البحث في المجال التخصصي لعلم التاريخ، فإنه يتعين على الباحث أيضًا الإلمام بشكل كبيرٍ بتاريخ جمع وإنتاج النسخة الرسمية للنصّ في صورتها النهائية؛ ليتسنى له

⁽١) من الغريب أنها تقرر مثل هذا الإشكال في تاريخ القرآن، وتبيّن أنّ ثمة أمورًا نجدها في المخطوطات والقراءات تخالف نسخ القرآن المنتشرة بين أيدي المسلمين؛ مما يسبب حيرة في التعامل البحثي ومدى اعتمادها من عدمه، رغم أن افتراض مثل هذه المخطوطات المخالفة لا أساس له من الصحة ودحضَه الكثيرُ من كبار المستشرقين المعاصرين -من أمثال فرنسوا ديروش- ممن تصدوا لدراسة مخطوطات المصاحف القديمة، وأثبتوا تطابقها مع النسخ التي بين أيدي المسلمين. (المترجم) (٢) مديرة هذا المشروع هي الأستاذة أنجيليكا نويفرت، والموقع على شبكة الإنترنت:

www.bbaw.de/bbaw/Forschung/forschungsprojekte/Coran/de/Startseite

ننبه هاهنا أن المدير الحالي للمشروع هو السيد Michael Marx. (التنبيه للمترجم)

⁽٣) هـذه مجرد دعاوي يُروّج لها للإشعار بأنِّ القرآن يشاطر الإنجيل وغيره ذات التاريخ، وأن له عـددًا من النسخ المختلفة، لكنها دعاوي عارية عن أي قدر من الصحة، وليس ثُم دلائل تشير إليها يمكن حتى الاستئناس بها، بل الثابت على خلاف ذلك كما بينا.



معرفة السياق الذي ظهر فيه، والمصادر الأخرى التي يمكن أن يستخدمها، وليقف على مختلف التطورات المحتملة للمفاهيم التي يذكرها النصّ. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الإشكالات المتعلقة بتاريخ الغرض أو النصّ المدروس أو تلك التي تواجهها سائر البحوث تكون عرضة لأن تتضاعف في حالة دراسة غرض أو كتاب مؤسّس؛ نظرًا لاحتمال الوصول إلى طريق مسدود في البحث عن تاريخه الحقيقي.

٣,١- النـوع الثالـث مـن الصموبـات: الجانـب المحيّـر والمضطـرِب للفـرض المـدروس؛ نظـرًا لانتمائـه لثقافـة بعيـدة فـي المـكان والزمــان:

يظهر في القرآن قدرٌ من الاضطرابات في محتواه على المستوى النصّي، وحتى عندما نقرأه بالعربية، يقول جاك بيرك (۱) –أحد المتخصصين الكبار في القرآن – في مقدمة ترجمته: «إنّ التكرار المتواصل لمفاهيم بألفاظ متطابقة ومتشابهة يثير الدهشة للوهلة الأولى، وهذا مغاير عن كونه أثر بلاغي لجناس أو إطناب. وبشكل متبادل يمكن القول بأن العرض القرآني يحبذ القفزات المفاجئة، فهو ينتقل بشكل مفاجئ من موضوع إلى آخر، ثم يعود إلى الموضوع الأول أو ينتقل إلى مواضيع أخرى. تلك الطريقة –التي تقتفي أثرها الترجمات الغربية – تحدث قدرًا من التنوّع، يُرجعه القارئ غير العربي بشكل طبيعي إلى التشوش وعدم الاتساق»(۲).

وعلى غرار جاك بيرك، فلقد لاحظت منذ البداية الجانب غير المنظم للنصّ، والذي يتمثّل في الانتقالات والتحوّلات المفاجئة في العرض والأسلوب والموضوعات؛ فالنصّ يحدث قطْعًا مفاجئًا، كما أنه يحوي تكرارًا عديدًا، وبه العديد من المقاطع التلميحية الكنائية (غير الواضحة)؛ نظرًا لاحتوائها على حذف وضمائر لا يُعرف على من تعود أو إلى ماذا تشير؟ (٣)

⁽١) مستشرق فرنسي كاثوليكي، ولد بضواحي الجزائر العاصمة عام ١٩١٠م حيث عاش بها فترة العشرين سنة الأولى من حياته والتي تعلم خلالها العربية وعمّق اتصاله بعلومها. شغل العالم العربي حيزًا كبيرًا من هاجسه العلمي حيث كتب عنه عددًا من مؤلفاته التي جاوزت الأربعين؛ منها: «المغرب بين حربين»، «المغرب: تاريخ ومجتمع»، «العرب من الأمس إلى الغد»، «الشرق الثاني»، ومن كتاباته حول الإسلام وقضاياه: «الإسلام في مواجهة التحدي»، «الإسلام في زمن العالم»، كما أنه انشغل كذلك بالقرآن بشكل خاص» حيث كتب عنه كتابه (إعادة قراءة القرآن»، وكذا قام بترجمة لمعاني القرآن الكريم. (المترجم)

⁽Y) من الغريب جدًّا إسقاط مثل هذه الأحكام على لغة القرآن، وتحكيم معايير كتابية معينة في لغته وقياسه تبعًا لها، مع أنّ لكلّ لغة (٣) من الغريب جدًّا إسقاط مثل هذه الأحكام على لغة القرآن، وتحكيم معايير كتابية معينة في لغته وقياسه تبعًا لها، مع أنّ لكلّ لغة منطقها في التعبير وطريقتها في السرد كما هو معلوم وكما ستشير آن سيلفي نفسها بعد قليل، فضلًا عن أنّ القرآن كتاب له خصوصيته في السياق العربي ذاته، ويتفرد بأنساق وطرائق وأساليب -وإن جرتْ بوجه عام مع العربية باعتبارها لغته- إلا أن لها خصوصية؛ ولذا فمن الواجب الحكم عليه من خلال معايير لغوية أخرى، وهو أمر نبّه عليه بعض المستشرقين على لغة القرآن غير دقيق، وأن لكلّ لغة منطقها، وأن للقرآن كذلك منطق لغوي منظم وطرائق محددة للتعبير والبيان تحتاج لدراسة وفهم.

فالسورة مثلاً في القرآن من الممكن أن تبدأ بخطاب حول القرآن ذاته مؤكدة أن ما سيأتي من كلام هو من عند الله أنزله على رسوله محمد، ثم تنتقل فجأة وبلا تمهيد إلى الثناء والمدح لقوة الله خالق السماوات والأرض، ملمّحة في سطرين إلى الصراع بين موسى وفرعون، وبعد ذلك مباشرة تُنكر بشدة سلوك الذين يشركون بالله آلهة أخرى منذرة إياهم بعقاب أليم في الجحيم. وسورة أخرى تستهلّ بدايتها بشكل مباغت، حيث تبدأ بمقطع تشريعي تبين فيه أحكام الزواج والطلاق على نحو مفصّل، ثم تلمح السورة إلى صورة من حياة النبي محمد ومن حوله، وكذلك تُبشر بعدها المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالخلود في الجنة، وتتوعد المنافقين والذين لا يطيعون الله ورسوله.

وعلاوة على ذلك، فإن للنصّ القرآني طريقته الخاصّة في الخطاب، فهو يلجأ -على سبيل المثال- إلى المعالجة المتتابعة والمتلاحقة؛ فلكي يصف مفهومًا فإنه يطرح قائمة بالعناصر المميزة لهذا المفهوم، والتي غالبًا ما يكررها مع حذف أو إضافة بعض العناصر دون أن يذكر هذه القائمة كاملة؛ فالقائمة مختلفة العناصر يجري تكرارها، بحيث يمكن للسامع عند ذكر عنصرين أو ثلاثة منها أن يستحضر جميع عناصر القائمة وهو ما يعني المفهوم كاملًا.

كما أنه ثمة إشكال آخر على صعيد تحليل ألفاظ القرآن؛ ذلك أن المعاجم الأكثر قدمًا والتي من الممكن أن أستعين بها لفهم الألفاظ القرآنية هي أحدث من النصّ القرآني ذاته، وتكون تعريفاتها مؤسسة غالبًا على استشهادات من ذات القرآن، كما أن المصدر الآخر الذي من الممكن أن يساعد علي فهم ألفاظ القرآن الكريم يتمثل في الشعر الجاهلي والشعر في صدر الإسلام والذي يقع جزء منه في هذه المعاجم القديمة، وفضلًا عمّا يعتور هذا المصدر من إشكال في صحة هذه النصوص الشعرية وصحة الطرق التي نقلت بها، فإن المصحف ذاته كبير الحجم وصعب ويتطلّب جهدًا طويلًا ومضنيًا.

⁼ يقول كويبرس: «إذا كان القارئ في العصر الحديث يجد أنّ قراءة نصّ القرآن من الأمور الغامضة والمحيرة، فما ذلك إلا لأنه نفسه أصبح غريبًا تمامًا عن البلاغة التي قام عليها النصّ القرآني ومنهج التفكير الذي قامت عليه هذه البلاغة». في نظم سورة المائدة - نظم أي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي، ترجمة: عمرو صالح، دار المشرق-بيروت، ط: الأولى-٢٠١٦، ص: ٤٧٨. ويقول أيضًا بعدها: «القرآن له منهج واضح في الغالب (لمن يعرفون البحث) للتعامل مع البلاغة السامية؛ فالتغير المفاجئ في الموضوع والمقاطعة أحيانًا (بواسطة الأيات المركزية) ثم المعاودة والاستمرار، والالتفات من ضمير الفرد المتكلم (بصيغة التفخيم) «نحن» إلى المفرد الغائب على سبيل المثال، كلها من مؤشرات تقسيم النصّ». (المترجم)

إِنَّ الجوانب المربكة للنصّ هي في الواقع آثار ترتيب مختلف لتركيب نصّ خاصّ يقوم على الإدراج والتتابع (١) على غرار بعض النصوص السامية، كما أنها أثر للبُعد الوعظي والاستطرادي والشعائري للنصّ.

إذًا، كيف نتنبه إلى مثل هذه الخصوصيات النصية؟ فلا نقفز على معنى النص ونجاوزه؛ لأن المعنى منقول بهذه الطريقة الخاصة؟

إنّ تلك الإشكالات تتعلق أيضًا بكلً موضوع مدروس، ولكن عندما يتعلق الأمر بنصً مؤسس فإنّ العمل يكون أكثر تعقيدًا؛ لأنه يتعيّن على الباحث - في سبيل حلّ تلك الإشكالات الاختيار من بين الطرق المختلفة التي تبنّاها سابقوه من المفسّرين وعلماء الحقبة الكلاسيكية في معالجة هذه الاشكالات، فهؤلاء قد تكون إسهاماتهم حقًّا مفيدة بشكل كبير، غير أنّ كمّ الأعمال التي يتعين علي الباحث معرفتها واكتشافها بمنظور نقدي في سبيل إيجاد تلك الإسهامات كثير نسبيًّا. وفي النهاية، فإن الرهان الديني لنصّ مؤسّس قد يغلق الباب من وقت لآخر أمام الدراسات النصيّة والأدبية له.

٢- البحث عن حلول:

١- هل يكمن الحلّ في المودة إلى النص؟

إنّ الحلّ الأكثر سهولة في مسيرة البحث لمجابهة تلك الإشكالات يكمن في محاولة إعطاء الأولوية للنصّ، وأن تكون له كلمة الفصل بقدر الإمكان، وذلك في سبيل التحرّر من التأويلات المسبقة ورفض الاستعانة بما يعرف بمصادر التفاسير القرآنية الكلاسيكية ونصوص التراث الأخرى، مثل أسباب النزول التي تحدد أسباب نزول هذا أو ذاك المقطع من القرآن.

إنَّ رفض تلك العناصر يمثل -من جانب- التحرر من إطار الإيمان والعقيدة، ذلك الإطار الذي يحافظ على الأفكار بشكل عام من منظور تربوي ودعوي أو تطبيقي للعقيدة؛ وذلك لأن النصّ التأسيسي للدين غالبًا ما يُنظر إليه على أنه كتاب مقدس، وهذا يعني أنه يمثل ليس فقط

⁽۱) انظر بحث: Michel Cuypers, Le Festin. Une lecture de la sourate al-Ma›ida, Paris, Lethielleux, 2007

القاعدة الثقافية للمجتمع، ولكنه أيضًا يكون كتابًا ذا سلطة بل وطبيعة إلهية، كما أنّ رفض عناصر التراث هو بمثابة تجنّب الإشكالات المتعلقة بمسألة التأريخ لتلك العناصر ومدى صحتها، وعلاوة على ذلك فإن تلك التفاسير والأعمال الأخرى غالبًا ما تكون صدى ورجعًا لثقافة المجتمع. وغالبًا فإن ما يطلق عليه تفسير للكتاب المقدس يكون في الحقيقة عملًا فريدًا ومبتكرًا، إلا أنه -باعتباره تفسيرًا- لا يكون معارِضًا لذات الكتاب المقدّس؛ ومن ثم فإنه يستفيد بذلك من سلطة الكتاب.

من جانب آخر، فإن إدارة الظهر لتلك العناصر هو بمثابة مخاطرة بتضييع معنى النصّ الأصلي، ففي الواقع لا يمكن فصل التراث عن نصّ تأسيسي؛ لأن هذا التراث المفسّر للنصّ قام المجتمع بنقله مع ذات النصّ منذ بدايات وجوده. إنّ الصورة المثالية لمجتمع شكّله نصُّ تأسيسي لا تعكس بالضرورة الحقيقة التاريخية، والتي تتزامن فيها فترة إعداد محددات وخصائص ذلك المجتمع مع فترة إعداد النصّ المؤسس وتفاسيره الأكثر قدمًا. وكما يقول الباحث في علوم الأديان بول جيفورد: «لا يمكنك التحدّث عن النصّ المقدس في مسيرته التاريخية الطويلة بمعزل عن المجتمع الديني، وهو ما يعني بمعزل عن التراث، لا يمكن التحدث عن السلطة والنصّ الديني والتراث بشكل منفصل»(٢).

لقد لعب المجتمع الإسلامي دورًا في جمع السور في مؤلف واحد تكوّنت نسخته الرسمية بشكل نهائي لاحقًا، كما لعب دورًا في نقل الأحاديث والعناصر الأخرى التي شكلت سيرة النبي محمد وأتباعه الأولين، هذه السير التي تستخدم كثيرًا في تفاسير القرآن. ومن ثم فإن دراسة النصّ المؤسّس بمعزل تمامًا عن النصوص التي تحيط به والتراث الذي نقله يعتبر ضربًا من الخطأ، واتباعًا للمبدأ القائل بأن «النصّ المقدّس وحده يكفي»، وهو الأمر الذي قد يؤدي أيضًا إلى فهم خاطئ للنصّ، وهو ما يجب تجنبه. ومن ثم فإنه يتعيّن البحث عن حلّ وسط لا يفصل تمامًا النصّ المؤسّس عن النصوص الأخرى والتراث الذي صاحبه، ولكن أيضًا يعطيه مكانة معاربة مناسبة.

Gifford, Idem, p.388 (Y)

Paul Gifford, «Religious authority. Scripture, tradition, charisma», in John R. Hinnels (ed.), *The Routledge companion to the study* (1) of Religion, Oxon-New York, Routledge, 2007, p.384-385

لقد حذّر المتخصّص في دراسة القرآن أندرو ريبين (۱) من التحليل الأدبي والدراسة النصيّة للقرآن بشكل منفصل ومن الادعاء الساذج بالعودة إلى المعني الأصلي الذي فهمه السامعون الأوائل من محمد لحظة تلاوته للنصّ (۲) ، فهو يدعو إلى اعتبار هذا النوع من الدراسة جزءًا من إطار أوسع يتكون من تاريخ تلقي النصّ أو ما يسمى بجواب القارئ، وهو ما يعني الطريقة التي فهم بها القارئ النصّ و تجاوب معه حتى يومنا هذا، و يَعْتَبِر ريبين أن المخاطرة كبيرة وأن دراسة من هذا النوع - تحت ادعاء العودة إلى المعنى الأصلي - لن تأتي سوى بتفسير آخر لنصّ تم تفسيره كثيرًا من قبل.

وبلا شك فإن الطريقة التي يمكن بها تجنّب الوقوع في هذا الشَرَك إنما هي المقاربة التاريخية النقديّة التي سادت دهرًا بين المتخصصين في القرآن، حيث انشغلوا خاصّة بكشف تاريخ تطوّر النصّ وأصوله وطريقة نقله من أمثال تيودور نولدكه وريشارد بيل وريجيس بلاشير (٣). غير أنه يبدو حاليًا أنّ دراسة نصّ القرآن ليس فقط من حيث صيغ أساليبه، ولكن أيضًا من حيث دراسة عناصر عديدة مثل طريقة الحجاج والاستدلال والسرد والنظم الشعري؛ يعطي روحًا جديدة للدراسات المعاصرة للقرآن، ويمكننا أن نذكر -على سبيل المثال- من هذه الدراسات

⁽۱) أندرو ربيين، هو باحث كندي من أصل بريطاني، ولد في لندن ١٩٥٠، واهتمامه الرئيس يتعلق بدراسة الإسلام المبكّر، ودراسة تفسير القرآن في العصور الكلاسيكية، له عدد من المؤلفات التي قام بتأليفها أو المشاركة في إعدادها، مثل: «دليل إلى الإسلام»، مع ديفيد إيدي ليوناردو دودنالد ليتل ريتشارد، كما حرر كتاب بعنوان «مقاربات في تاريخ تفسير القرآن»، والذي صدر عن جامعة أكسفورد عام ١٩٨٨. وقد عمل كباحث زميل في معهد الدراسات الإسماعيلية بلندن، منذ عام ٢٠١٣، وكانت وفاته في ٢٠١٦. (المترجم)

Andrew Rippin, «The Quran as Literature: Perils, Pitfalls and Prospects», *Bulletin of the British Society for Middle-Eastern Studies*, (Y) vol.10 n°1, 1983, p. 38-47

⁽٣) ريجيس بلاشير (١٩٠٠)، هو واحد من أبرز وأشهر وجوه الاستشراق الفرنسي، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد في مونروج ضمن ضواحي باريس. تعلم العربية في الدار البيضاء بالمغرب، وتخرّج في كلية الآداب في الجزائر عام ١٩٣٢م، وعيّن أستاذًا في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط، وانتقل إلى باريس محاضرًا في السوربون عام ١٩٣٨م، ثم عُيّن مديرًا لمدرسة الدراسات العليا العلمية عام ١٩٤٢م، وأشرف على مجلة المعرفة الباريسية بالعربية والفرنسية. ألف بلاشير العديد من الكتب والتي ترجم بعضها إلى العربية، واعتمد بعضها للتدريس في بعض المعاهد الثانوية الفرنسية. من مؤلفاته:

⁻ترجمة معاني القرآن الكريم، في ثلاثة أُجزاء، أولها مقدمة القرآن الكُريم. ثم نشر الترجمة وحدَها في عام ١٩٥٧م، والتي أعيد طباعتها عام ١٩٦٦م.

⁻ تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. إبراهيم الكيلاني.

⁻ قواعد العربية الفصحي.

⁻ أبو الطيب المتنبى، عرّبه د. أحمد بدوي. (المترجم)

أعمال ميشيل سيل (١)(١) ، ميشل كوبيرس (٣) ، سلوى العوا (٤)(٥) ، دانييل ماديجان (٢)(١) ، و توماس هو فمان (٩)(٨) .

وبالنسبة لأندرو ريبين -وهو من أنصار المقاربة النقدية التاريخية - فإنه يفضّل الإشارة إلى أنّ من يرغب في دراسة الجوانب النصيّة للقرآن فإن عليه أن يجريها في إطار أوسع يتكوّن من تاريخ التفاعل والتجاوب مع نصوص أخرى أكثر قدمًا.

إنّ القرآن المدروس في سياقه الأدبي والثقافي والديني هو ذاته الذي يتم دراسته أيضًا باعتباره ردّة فعل وإعادة قراءة وتفسير لمجموعة من المعطيات الثقافية التي عاصرته، لا سيما الكائنة في النصوص المنتمية للثقافة التوراتية والتي تتحدد مكانة القرآن ذاته تبعا لها.

Michael Sells, «A Literary Approach to the Hymnic Suras of the Quran: Spirit, Gender, and Aural Intertextuality», in Issa J. Boullata (1) .(ed.), *Literary Structures of Religious Meaning in the Quran*, Richmond, Curzon, 2000, p. 3-25

⁽٢) ميشيل سيل، أستاذ إسلاميات أميركي من مواليد ١٩٤٩، وهو أستاذ كرسي جون هنري باروز للتاريخ الإسلامي والأدب بكلية اللاهوت بجامعة شيكاغو، وتدور اهتماماته البحثية حول عدد كبير من المجالات، الدراسات القرآنية، التصوف الإسلامي والمسيحي واليهودي، تاريخ الإسلام، الشعر العربي. (المترجم)

⁽٣) ميشيل كويبرس هو رجل دين كاثوليكي، من أتباع شارل دو فوكو، عاش في مصر منذ العام ١٩٨٩ كعضو في المعهد الدومينيكي للدراسات الشرقية (IDEO)، وتخصص في الدراسة الأدبية للنصّ القرآني، لا سيما فيما يتعلق بنظمه وبعلاقاته النصيّة مع الأدب المقدّس المتقدم عنه تاريخيًّا. من مؤلفاته:

⁻ Une apocalypse coranique. Une lecture des trente-trois dernières sourates du Coran, Paris, Gabalda, 2014.

^{- «}كشْف قرآنى؛ قراءة للسور الثلاث والثلاثين الأخيرة من القرآن»، باريس، دار نشر: Gabalda، ٢٠١٤.

⁻ La Composition du Caran. Naz al-Qur'ân, Paris, Gabalda, 2012.

^{- «}نظم القرآن»، وسوف يصدر قريبًا عن دار المشرق -بيروت، وقام بتعريبه عدنان المقراني وطارق منزو.

⁻ Le Festin, une lecture de la sourate al-Mâ'ida, Lethielleux, 2007.

⁻ في نظم سورة المائدة - «نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي»، وقد صدر عن دار المشرق -بيروت، ٢٠١٦، ترجمة عمرو عبد العاطي صالح.

وأحد كتبه، المعنون بـ «الأفكار المتداولة عن القرآن»، والذي كتبه بالاشتراك مع الباحثة جنيفيف جوببو، قيد الترجمة الآن من قبل مركز تفسير للدراسات القرآنية. (المترجم)

⁽٤) معلوى العوا، باحثة وأكاديمية، وهي الآن أستاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوانزي البريطانية، وتتركز (٥) سلوى العوا، باحثة وأكاديمية، وهي الآن أستاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوانزي البريطانية، وتتركز اهتماماتها حول بنية النصّ القرآني، واللغة، والتحليل السياقي للنصّ، لها عدد من الكتب المهمة في هذا السياق، أشهرها: «الوجوه والنظائر في القرآن الكريم»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٩٨، هو بحثها الذي تقدمت به لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة عين شمس، وكتبت مقدمته الدكتورة الراحلة عائشة عبد الرحمن (١٩١٣) العربية والسياقية للنصّ القرآني، والتي كانت أحد مناقشي الرسالة، وكذا كتابها المشار إليه في هامش الكاتبة، «العلاقات النصية في القرآن؛ البنية، الترابط، الصلة». (المترجم)

Daniel Madigan, The Quran's self-image: writing and authority in Islam's scripture, Princeton, Princeton UP, 2001, p.236 (٦) دانييل ماديغان، كاهن يسوعي معاصر، أسترالي الأصل، وهنو مؤسس ومدين معهند دراسنات الأدينان والثقافات بالجامعة الغريغورية البابوية، حاصل على دكتوراه في الدين الإسلامي من جامعة كولومبيا الأمريكية عام ١٩٩٧، وعمل كأستاذ زائر في عدد من الجامعات، كولمبينا، أنقرة، بوسطن. (المترجم)

⁽A) Thomas Hoffman, The Poetic Quran. Studies on Quranic Poeticity, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 2007, p. 192 (A) أستاذ بكلية اللاهوت بجامعة كوبنهاجن الدانمركية، حاصل على دكتواه في الأدب المقارن، تتركز اهتماماته في دراسات القرآن، في لغة القرآن، وفي صلته بالطقوس وفي حضوره في الأدب الغربي. (المترجم)

وفي الواقع يبدو أنه من المهم الانشغال بتحديد مكانة النصّ نفسه تاريخيًّا أثناء التحليل الأدبي، وتقدير كيف أنّ نصًّا ما لا يظهر في فراغ ثقافي ومفهومي، والانتباه إلى الإشكالات التي تعترض العمل الذي يتخذ النصّ فقط ركيزة له؛ ومن ثم فإننا نرى أن كلا الدراستين النصيّة والتاريخية مهمّتان ومكملتان لبعضهما البعض. إن الباحثة الألمانية المتخصصة أنجيليكا نويفرت (۱)(۲) تمزج كلتا المقاربتين في أعمالها، غير أنّ دراسة النصّ القرآني تتطلب في حدّ ذاتها قدرًا من الجهد والوقت والقدرات؛ لذلك فإن الاكتفاء بدراسة النصّ التأسيسي وحده وترك التراث والنصوص المصاحبة له لأعمال لاحقة يبدو مُبَرِّرًا جدًّا. إن دراسة القرآن ينظر لها من ثم باعتبارها لبنة من بين لبنات أخرى لازمة لبناء صرح دراسة الدين الإسلامي في علوم الأديان؛ حيث إنها برغم خصوصيتها وأهميتها تبقى غير كافية على الإطلاق.

لكنّ الدراسة النصيّة للقرآن يمكن أن تقدم ضمانات إذا ما انشغلت بشكل دائم بتحديد موقع النصّ في سياقه التاريخي والنصّي واللغوي. إنّ النقد الذي وجّهه أندرو ريبين للمقاربة الأدبية يرجع تحديدًا لافتقارها لكلّ من تسييق النصّ وعدم الانفتاح على تعدديّة منهجية في المقاربة، وغير خافٍ أنّ تسييق النصّ يصطدم بحدود المعرفة التاريخية التي تنتج بدورها حدودًا في استعمال الأدوات المساعدة على فهم النصّ.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه يبدو لي أنه يسعنا محاولة إيجاد حلّ يمكّننا من مجابهة تلك التحديات. هذا الحلّ ينبغي أن يمرّ بعدد من الخطوات التي يتعين اتباعها في مسيرة البحث؛ وبيانها على النحو التالي:

- السياق النصي: وهو الممرّ المباشر الذي يوجد فيه فكرة أو استدلال النصّ قيد الدراسة، وهذا السياق تم تحديده عبر بحث علامات التغيّر في النصّ، في إطار منهج البلاغة السامية، كما أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار سمات النصّ وخصائصه كالأسلوب الحجاجي والاستدلالي والخطابي.

Angelika Neuwirth, Studien Zur Komposition der mekkanischen Suren, Berlin and New York, De Gruyter, 1981 على سبيل المثال: (١) Angelika Neuwirth, « Referentiality and Textuality in Surat al-Hijr. Some Observations on the Qur'anic « Canonical Process » and the Emergence of a Community », in Issa J. Boullata (ed.), Literary Structures of Religious Meaning in the Qur'an, Richmond, Curzon, 2000, ...p. 143-172

⁽٢) أنجيليكا نويفرت هي واحدة من أشهر الباحثين الألمان والأوروبيين المعاصرين في الدراسات القرآنية والإسلامية، من جامعة برلين الحرة، وهي المديرة السابقة لمشروع «كوربس كورانيكوم»، عملت كأستاذة للدراسات الإسلامية في عدد من الجامعات حول العالم، برلين، طهران، ميونيخ، وكذلك كأستاذة زائرة في جامعة عمان، ولها عدد من الكتابات والدراسات المهمة في مجال القرآن ودراساته. (المترجم)



- السياق النصّى العام للكتاب: وهو دراسة التطابقات والتكرار ومساحات الالتقاء والتوارد بين النصّ والنصوص الأخرى من خارجه، وكذا بعض السمات المميزة للنصّ، بالإضافة إلى بعض الإحصائيات كتكرار توارد الألفاظ.

- السياق التاريخي: ويشمل دراسة الأفكار الدينية والثقافية للحقبة من خلال التناص، وأيضًا الاعتبارات الخاصة بالألفاظ وحالة اللغة في تلك الحقبة من خلال العودة إلى الشعر والمعاجم القديمة، وكذلك الاعتبارات الأخرى الخاصة بتاريخ محمد وأمته بقدر ما.

٢- وسيلة واقعية: قاعدة البيانات:

لقد بحثت في أطروحتي الخاصة عن وسيلة واقعية تمكّنني من تحليل النصّ القرآني مع الأخذ في الاعتبار قدر الإمكان كلّ تلك العناصر.

يمتلك النصّ القرآني ميزة على أيّ حال برغم سائر إشكالاته، فلا يمكن قراءته على أنه مرويّة؛ لأنه لا يتبع ترتيبًا زمنيًّا، ولا يمكن قراءته على أنه بحث علمى؛ لأنه لا يصدر عن نسق استدلالي مرتّب؛ بدءًا من وضع الفرضية ونقيضها ثم البناء والتركيب، لكن «عدم ترتيبه هذا» يبدو في الواقع أنه ترتيب لتضمين مقاطع قصيرة تقريبًا لكنها قابلة للتقطيع بشكل يسير؟ بفضل علامات عديدة كالتغير في القافية والإيقاع، ومواطن النطق والموضوع...إلخ، ومن ثم من الممكن بل ومن المناسب جدًّا أن نكوّن قاعدة بيانات، يمثل كلّ تسجيلة منها مقطعًا من تلك المقاطع، لكن شريطة التوفية أولًا بمتطلبات عديدة؛ كإيجاد طريقة تسمح لكلّ تسجيلة بأن تأخذ مكانها في البناء مع الفصل بين المقاطع، وتنظم التسلسل الزمني، وتسمح بالربط بين تلك المقاطع والمقاطع الأخرى عن طريق التناص واكتشاف مساحات التقاء النصّ في المعالجة مع نصوص أخرى من خارجه، وأن توفر لكلّ مقطع ما يخصّه من عناصر التفسير الكلاسيكي وعناصر البحث المعاصر.

وقطعًا هناك عدد معين من الأدوات التي تعين على تفسير النصّ القرآني مثل: الفهارس، وأشهرها فهرس عبد الباقي(١) الذي تمت طباعته عدة مرات، وفي يومنا هذا هناك عدد كبير من أقراص الـ DVD للقرآن الكريم التي لها نفس الوظيفة، حيث تسمح بإيجاد التوارد والاتفاق سن الألفاظ.



فيما يخص التطابقات بين المقاطع المختلفة (طابع البنية والتعرّف على مساحات التقاء النصّ في المعالجة مع نصوص أخرى من خارجه)، فإن عمل رودي بارت (۱۱٬۲۰۰ يقدم لكلّ آية مع ما يماثلها أو يشابهها من الآيات الأخرى، وكذلك فيما يتعلق بالتناص واكتشاف مساحات التقاء النصّ في المعالجة مع نصوص أخرى فهناك بعض الملاحظات المصاحبة للترجمات تقدم بشأنها توضيحات كترجمة دكتور ماسون وريجيس بلاشير، كما أن هناك ترجمات أخرى تحيل بطريقة مفيدة على التفسير الإسلامي كترجمة بوبكر وجاك بيرك وريجيس بلاشير، فضلًا عن أن التفاسير الإسلامية -المتاحة بدورها على نفس الـ DVD تحيل غالبًا على عناصر من التراث الإسلامي كالحديث وأسباب النزول.

ورغم كلّ ذلك، فقد كنت في حاجة إلى أداة تتوافق مع احتياجاتي، وذلك بمعني أن تقوم بتزويدي مرة واحدة بكلّ أنواع المعلومات الخاصّة بكلّ مقطع يتعلق بحديث القرآن عن القرآن. لقد بحثت -بعد انطلاقي في البحث بمدة - عن برنامج لإنشاء قاعدة البيانات تلك، ولكن تم تثبيطي من قِبل البعض الذين يخشون من أن يبعدني استخدام الحاسوب عن حقيقة النصّ، بينما كان الأمر بالنسبة لي يتعلق ببناء قاعدة بيانات تسمح بتحديد مكان النصّ في المقطع وعلاقته بمجمل النص، ثم شجعني آخرون، لكن كان لا بد من إيجاد البرنامج المناسب.

لقد كنت بحاجة إلى برنامج إدارة البيانات الببليو جرافية مثل Endnote أو الكون مناسبًا لمعاييري، ثم اكتشفتُ أن زملائي من علماء الآثار يستخدمون برنامج Filemaker والذي من خلاله يتم عمل قواعد بيانات كبيرة، تضم على سبيل المثال كلّ المباني التي قاموا بدراستها إضافة لسائر الصور والرسومات والخرائط المطابقة. لقد حاولت استخدام Filemaker لكن لسوء الحظ لم يفلح ذلك؛ فبالرغم من أنه يمكن الكتابة عليه بالعربية، إلا أنّ النص لا يمكن تعديله لاحقًا(٣)، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه يمكن عمل قاعدة بيانات في برنامج Access التابع له مساكل.

(٣) كما أنه كان هناك مشكلات كبيرة عجزت عن التعامل معها في نظام الوصل بين الخصائص ومعاني النصّ، ومكان المؤشّر، وأيضًا في خط النسخ.

[.]Rudi Paret, *Der Koran, Kommentar und Konkodanz*, Stuttgart, Kohlhammer, 1971

⁽٢) رودي بارت مستشرق ألماني، ولد عام ١٩٠١، وتوفي عام ١٩٨١، ومن أشهر أعماله ترجمته للقرآن، والتي عمل فيها سنين طويلة وأخرجها تباعًا منذ ١٩٦٣ وإلى عام ١٩٦٦، وهي ترجمة وشرح أو تعليق فيلولوجي، كما أنه له كتاب مهم طالما يشير إليه المختصون في الاستشراق الألماني، وهو كتاب «الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه»، وقد ترجم للعربية، حيث ترجمه مصطفى ماهر، وصدر عام ٢٠١١ عن المركز القومي للترجمة والهيئة العامة المصرية للكتاب، وهذا الكتاب لا يعرض فحسب صورة لتطور الدراسات العربية والإسلامية في ألمانيا على يد أحد أهم المتخصصين، لكنه كذلك يتناول مسألة التلقي العربي لكتب المستشرقين، ويوضح رأيه فيها. (المترجم)

لقد ابتكرت نموذجًا قياسيًّا، حيث قمتُ فيه بتسجيل المقاطع القرآنية التي كانت لها علاقة بشكل قريبِ أو بعيدٍ بموضوع بحثي وهو «حديث القرآن عن القرآن»، لكن عندما قمتُ بعمل مائة تسجيلة كان البرنامج يتوقف إثر قيامي بتعديل أكثر تعقيدًا نوعًا ما، في حين أنه كان يجب في تقديري إدخال ما يقارب الألف تسجيلة. كنتُ أعمل على نسخة office 2007. فسجلت الملف في نسخة قديمة حيث اعتقدت أنها أكثر سرعة، وكذا سائر النسخ الأخرى السابقة من الوورد والتي هي أكثر سرعة من Word 2007 . كان هذا هو الحلّ الأمثل، حتى عندما وصلت إلى ٠٠٨ تسجيلة، ظلّ البرنامج يعمل وأمكنني التحقّق من أنّ سائر الوظائف التي كنت أحتاجها موجودة. لقد أتاح لى النموذج تسجيل نصّ المقطع باللغة العربية ومفاتيح الكلمات أيضًا باللغة العربية؛ وذلك نظرًا لصعوبة البحث المباشر باللغة العربية بسبب ما لها من سمات معينة كالألفاظ المشكِلة والألفاظ المتشابكة فيما بينها وتغيّر شكلها، كما أتاح البرنامج مساحة لكتابة الملاحظات باللغة الفرنسية حول معنى المقطع وربما ترجمته. كما يوفر ذلك النموذج معطيات حول علاقات النصّ بغيره من النصوص الأخرى، وتعليقًا على مكان المقطع في السورة وما يسبقه وما يليه، ومكانه في التركيب، بالإضافة إلى ملاحظات تخصّ التفاسير التراثية للقرآن، والألفاظ المشكِلة أو النادرة والاستثنائية، وبعض الخيارات التي تثير اهتمامي بشكل خاص، مثل ما إذا كان المقطع يشكّل حديثًا مباشرًا عن القرآن أو النبي محمد أو نبي سابق. لقد ملأتُ تلك القائمة انطلاقًا من القَطْع الذي أجريته أثناء قراءتي للنصّ؛ ذلك القطع الذي يعتمد على العناصر المستخدمة في التركيبة السامية لا سيما القوافي، العلامات النحوية، علامات النطق وعلامات التأكيد...إلخ(١). وقد قمتُ بابتكار قائمة أخرى للسور؛ حيث دوّنت بها السمات المعيّنة لكلّ سورة، وعلى وجهٍ خاصّ الفرضيات المتعلقة بترتيبها الزمني في النزول، سواء أكانت فرضيات تراثية أم حديثة.

إنَّ وجود قائمتين داخل قاعدة البيانات نفسها يسمح لي بعمل حالة/ مجال عن طريق الضغط على بعض المفاتيح، فعلى سبيل المثال أريد أن أعرف إذا ما كانت تلك الكلمة قد وردت كثيرًا في أي المقاطع، وبخصوص أي موضوع، وما مدى ملائمة استخدامها في ظلّ التطور الزمني للنص. وبإنشاء «حالة» أضع قائمة بالترتيب الزمني المختار وبكل المقاطع المصاحبة لسائر المعطيات التي أريدها، ثم أقوم بطبع القائمة لاستثمارها، وبذلك أستطيع أيضا جمع المعايير.

⁽١) يظهر أن مرادها بالقَطْع هاهنا هو ما أشار إليه بعض الدارسين الغربيين لنظام الخطاب القرآني ومقارنته بالبلاغة السامية كميشيل كويبرس، حيث يشيرون إلى أن القرآن يتبع قواعد البلاغة السامية بوجه عام في أنه يحدث تحولات وقطْع مقصود للسياق ببعض الجمل والاستثناءات، والتي تكون لها مركزية معينة يريد النصّ لفت الانتباه إليها بشكل خاصّ؛ ومن ثم يجب العناية بهذا القطع في نصّ القرآن وإعطاء مضمونه أولويّة خاصة. (المترجم)

وحاصل ما سبق أن أضحَى لديّ قاعدة بيانات ملائمة بشكل كبير لأبحاثي على النصّ، وبالأخص قريبة بصورة أكبر من طبيعة النصّ، حيث تكشف لي في النتيجة النهائية (هذه الحالات التي أطبعها) عناصر التسلسل الزمني وعناصر الاقتباس والبنية التي لم يكن بمقدوري الحصول عليها بهذا الشكل السهل بدون تلك القاعدة. لكن ثمة مشكلة، فما دونته عن البنية لم يعطني مدخلًا لخارطتها، لكن هذا التحدي يمكن حلّه فيما بعد.

وبشكل مجمل، فحتى إذا كانت قاعدة البيانات التي أنشأتها ليست الوسيلة المثالية لدراسة النصّ القرآني، إلا إنها أفضل بكثير من صفحات الأوراق المتناثرة، والتي من الصعب أن نجد فيها هذا الموضوع أو تلك الكلمة مما له علاقة بموضوع أو بكلمة أخرى، والتي لها تطور زمنى، لكنها تأخذ مكانها في تركيبة تلك السورة.

هذه القاعدة من البيانات لم تمنعني من مداومة النظر في النصّ القرآني كما هو، لكنها أداة توفر الوقت ووسيلة لاكتشاف روابط وعناصر الحديث القرآني، والتي لم يكن ليتسنى لي معرفتها بدون تلك الأداة.





الخاتمة

إن خبرتي البحثية فيما يتعلق بمقاربة نص تأسيسي «القرآن» كانت بمثابة تساؤلات حول إمكانية إدارة الصعوبات الخاصة المتعلقة بدراسة النصّ القرآني، والإشكالات الخاصّة بالتفاسير والأفكار الجاهزة، وبتاريخ النصّ وخصائصه النصيّة. لقد أدى بي هذا التساؤل إلى التفكير في إمكانية تبنّي مسيرة العودة إلى النصّ، تلك المسيرة التي قد تبدو خطيرة ووهميّة؛ إذ لم يساورها القلق بشأن بعض المتطلبات، لا سيما تسييق الموضوع قيد البحث (ويشمل ذلك السياق النصّي الوسيط والسياق العام للنصّ، بما فيه التسلسل الزماني والسياق التاريخي والثقافي واللغوي). وفي سبيل البحث بشكل واقعي عن كيفية التحصّل على تلك العناصر السياقية أثناء استقراء واستثمار المقاطع القرآنية، وكيفية تصنيفها تبعًا لمعايير عديدة= توصلتُ إلى ابتكار قاعدة من المعطيات النصيّة الممكنة.

أتمنى أن تشجع خبرتي البحثية المتواضعة بعض طلاب الدكتوراه على البحث عن حلول تتوافق مع احتياجاتهم الخاصة، لا سيما إذا كانت بحوثهم تتمحور حول نصّ تأسيسي، وكانت الحاجة في الوقت نفسه هي علاقة قوية مع أعمال لاحقة وتسييق جاد يمكن الشعور به وإدراكه.